حوليات آداب عين شمس (عدد خاص 2020)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

"عقلانية الأخلاق المسيحية وتطبيقاتها التحررية عند القديس بييّر أبيلار"

غلاب عليّو حمادة عثمان*

باحث دكتوراه، بقسم "الدراسات الفلسفي"، كلية الآداب، جامعة عين شمس
ghallab_alabnody@art.sohag.edu.eg

تاريخ الاستلام: 2018/01/21
تاريخ قبول البحث: 2018/02/24
تاريخ النشر: 2020/03/30

المستخلص:

تعد "عقلانية الأخلاق المسيحية" و"مفهوم الخطيئة الفعليّة" من أهم الإشكاليات الأخلاقيّة التي عالجها أهم فلاسفة الأخلاق واللاهوت العقلانيين في العصور الوسطى الأوربية، وهو **بييّر أبيلار**، والذي تميّز بتعويله على العقل، وتمرده على الكنيسة، ودعوته للنزعة الإنسانية، وتجديده للفكر والخطاب المسيحي.

فلقد ربط أبيلار بين الأخلاق واللاهوت رغبة في تحرير الأخلاق المسيحية، والإعلاء من قيمة الإنسان، إذ جعل الأخلاق تقوم على العقل، وذلك بتقديمه أخلاق عقلانيّة تطرح تصورًا دقيقًا لمفهوم الخطيئة الفعليّة، وتحتل فيها: النيَّة، والإرادة، والضمير، والشهوة مكان الصدارة، فلا وجود إلا لخطيئة فعليّة شخصيّة يتحمل نتيجتها فاعلها، إذ أن الجهل بفعل ما عند أبيلار لا يعد خطيئة.

كما طبق أبيلار الأخلاق على اللاهوت، فتوصل إلى عديد من النتائج التحرريّة، والتي كانت بحق ثورة أخلاقية، ولاهوتية، وفكرية، ومن أهمها: رفضه لذنب صالبي المسيح. كما رفض ذنب مضطهدي الرُسل والشهداء، ورفض كذلك ذنب غير المؤمنين بالمسيحية، كما أنكر وراثة الخطيئة الأصلية. ونتيجة لذلك اتهم بالهرطقة في مجمع "سانس" (1141م).

أما الهدف من وراء هذا البحث فيكمن في محاولة كشف النقاب عن فكر واحد من أهم الفلاسفة المسيحيين المتحررين، ألا وهو أبيلار، كما تهدف الدراسة في محاولة الوقوف على فكره الأخلاقي الوثيق الصلة باللاهوت، وسنعوّل على المنهج "التحليلي النقدي المقارن" في معالجة فكر أبيلار.

يعالج البحث أربعة محاور أساسية، هي:

الخطيئة الفعليّة عند أبيلار.

النيَّة عند أبيلار وأثرها على الخطيئة الفعليّة.

الإرادة والشهوة عند أبيلار وعلاقتهما بالخطيئة الفعليّة.

التطبيقات التحررية لأخلاق أبيلار العقلانيّة.

الكلمات المفتاحية: (بيير أبيلار – الأخلاق – الإرادة – الخطيئة الفعليّة – المسيحية – النيّة)

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب – جامعة عين شمس 2020.

عقلانيّة الأخلاق المسيحية وتطبيقاتها التحررية عند القديس بييّر أبيلار

المقدمة:

يعد **بييّر أبيلار**[1] *Pierre Abélard* (1079 – 1142م)، واحدًا من أهم فلاسفة الأخلاق واللاهوت العقلانيين المتحررين في العصور الوسطى الأوربية، وإن لم يكن أهمهم على الإطلاق، فقد كان معوّلًا على العقل، ومتمردًا على الهيمنة الكنسيّة، وداعيًا للنزعة الإنسانية، ومجددًا للفكر والخطاب الديني المسيحي، ومبشرًا بالإصلاح الديني، ومؤسسًا للحوار بين الأديان والثقافات، كما تنوعت إسهاماته الفلسفية بين الأخلاق، واللاهوت، والديالكتيك، و...إلخ.

كما تُعد عقلانيّة الأخلاق المسيحيّة واحدة من أهم الركائز الأساسية التي عوّل عليها **أبيلار** في تأسيسه لمشروع تحرري، ألا وهو، رفض الهيمنة الكنسيّة على الإنسان من ناحية، وتأسيس الإيمان المسيحي على العقل من ناحية ثانية، والإعلاء من شأن النزعة الإنسانية من ناحية ثالثة، فلقد أراد **أبيلار** أن يُحرر الدين المسيحي من أية هيمنة يمكن أن تمارس عليه، وبما أنه ربط بين الأخلاق والعقيدة المسيحية، فقد انطلق من الأخلاق لتكون نقطة البدء في مشروعه التحرري، إذ جعل هدفه ترسيخ النزعة الإنسانية في فلسفته عامة؛ وفي فلسفته الأخلاقية خاصة، تلك النزعة التي تُعلي من مكانة الإنسان العقلية، فقد رغب في تحرير المسيحية عندما جعل الأخلاق تقوم بشكل أساسي على العقل فحسب، وذلك بتقديمه لفلسفة أخلاق عقلانيّة تطرح تصورًا دقيقًا لمفهوم الخطيئة الفعليّة، وفيه تحتل كل من: النيَّة، والإرادة، والضمير مكان الصدارة.

فلقد أعلى **أبيلار** من القيمة الإنسان العقلية، بل وجعلها تقود كل أفعاله الأخلاقية والدينية على حد سواء. ولم يكتف **أبيلار** بتقديم عقلانية أخلاقية بل قام بتطبيقها في الوقت ذاته على العقائد المسيحية، فتوصل إلى نتائج تحرريّة عقليّة، ومن أهمها: رفض أبيلار لذنب صالبوا المسيح، كما رفض ذنب مضطهدي الرُسل والشهداء، ورفض كذلك ذنب غير المؤمنون بالمسيحية، كما أنكر وراثة عقيدة الخطيئة الأصلية، ولا وجود إلا لخطيئة فعليّة شخصيّة يتحمل نتيجتها فاعلها فقط، فكانت النتائج في حقيقة الأمر ثورة دينية وفكرية، فقلما نجد مثيل **أبيلار**، ومثيل أفكاره الثورة التجديدية التحررية في فلسفة العصور الوسطى الأوربية، وقد ترتب على ذلك أن هاجمه معاصروه هجومًا بالغًا، واتهم بالهرطقة نتيجة ذلك في مجمع "**سانس**" *Sens* عام (1141م).

لقد وجدت في عصر **أبيلار** عديد من المناقشات الأخلاقية، وانتشرت بشكل كبير بين كل من: اللاهوتيين الرهبان، والكهان من جهة، والإسكولائيين (المعلمين والطلاب المتخصصين في دراسة الفنون الحرّة) من جهة أخرى، وذلك لاتفاق الرهبانية والإسكولائية Scholasticism في كثير من المشكلات الأخلاقية، (*Luscombe*, 1974, P.66.) حيث كان مصطلح "الأخلاق" غالبًا ما يعني في عصر أبيلار إلى كل من الأخلاق العقلانية والأخلاق اليونانية على حد سواء (Luscombe, 1974, P. 73)، وهذا ما جعل **أبيلار** يطرح فلسفة أخلاقية جديدة؛ لتكون بداية لطرح مشروعه عن التحرر الديني.

عالج **أبيلار** فلسفته الأخلاقية في كتابه الشهير "**الأخلاق**" Ethica الذي أطلق عليه اسم "**اعرف نفسك**" Scito Te Ipsum. وألّفهُ أثناء تدريسه في باريس بين عامي (1135م) و(1139م)، وقد عُدَّ هذا الكتاب أكبر إسهام فكري في تطوير الأخلاق في القرن الثاني عشر بل وفي عصر النهضة الأوربية،(Kemeny, 1991, P.P. 374, 375.) وهو واحد من أهم المؤلفات التي ناقش فيها **أبيلار** بمهارة فائقة المسائل الأخلاقية التي لم تكن مطروحة في العصور الوسطى الأوربية، وهو يتكون من جزأين، **الأول**، وهو جزء كامل، يعرض فيه **أبيلار** لمفهوم الخطيئة الشخصية، ويعرض كذلك كل من: الندم، والاعتراف، والغفران، والرضا، واقترح فيه علاجًا لشفاء النفوس الضعيفة، أما **الثاني**، وهو جزء غير مُكتمل، لم يتبق منه سوى شذرات بسيطة، فيعالج فيه قضايا الخير، والشر، والفضيلة والطاعة لله، وقد عوّل في مناقشاته لهذه الإشكاليات على الكتاب المقدس وبعض أعمال الآباء. (Luscombe,1974, P. 65)

كما اطلق **أبيلار** على كتابه الأخلاقي "**الأخلاق**" عنوان ثاني له، ألا وهو، "**اعرف نفسك**"، وقد اختلف الباحثون في سبب اختيار **أبيلار** لهذا العنوان الثاني لمؤلفه، فقد ذهب **ليوسكومبي** Luscombe إلى أن **أبيلار** استمد هذا العنوان الثاني "**اعرف نفسك**"، من مبدأ سقراط الأخلاقي "**اعرف نفسك بنفسك**"، وهو يعني مبدأ **سقراط** الجواني المستمد من وحي **دلفي** Delphic، وهو ما يعني تبني **أبيلار** لوجهة النظر الجوانيّة المتبعة في المناقشات الأخلاقية، ولنهج **سقراط**، حيث كان يُعتقد آنذاك بأن **سقراط** هو مؤسس علم الأخلاق، وقد أشار **أبيلار** نفسه إلى أن كتابه "**الأخلاق**" يعالج في حقيقة الأمر لأخلاقه هو،(Luscombe, 1974, P.P. 72,73.) إلا أن **كيفان مكماهون** Kevin McMahon فقد ذهبت إلى أن سبب ذلك العنوان الثاني الذي اختاره **أبيلار** لكتابه، يكمن في إبراز أن الغاية الأساسية لكتابه تتمثل في التقييم الذاتي للأخلاق، (McMahon, 2009, P.1.) والذي يعني في حقيقة الأمر أن التركيز يجب أن ينصب على التصرفات والمواقف الإنسانية الجوانية، (Kemeny,1991, P. 381) لا على التصرفات والمواقف الظاهرية، أي يجب على كل إنسان أن يتعقل أفعاله الأخلاقية ثم يقيمها، وبعد ذلك يتعقل أخلاق الآخرين، وكذلك الأخلاق المتضمنة في النصوص الدينية لبيان مدى معقوليتها.

كما تناول **أبيلار** الإشكاليات الأخلاقية بشيء من التجديد، وأدخل عليها حسًا نقديًا كاد أن يكون جديدًا على لاهوتي وفلاسفة المسيحية،(برماوي، 2009، ص 431.) ولقد كان هدف **أبيلار** منه محاول استكشاف الأخلاق المسيحية بالعقل، والتي يعدها ما إلا إصلاحًا للأخلاق الطبيعية، وهو ما يعني أنه يُرجع المسألة الخلقية إلى كل من: الضمير، والنيَّة، والوجدان، وهو ما ترتب عليه أن تكون الخطيئة شخصية، وأنه لا محل لخطيئة موروثة عن **آدم** (عليه السلام)؛ وأن الخلاص أمر شخصي كذلك، وأن استحقاقات المسيح لا تعود علينا،(كرم، 1946، ص 105) ولقد وجه **أبيلار** كتابه إلى كل من: الفلاسفة والحكام على حد سواء، إذ وجهه إلى الفلاسفة والمصلحيين الاجتماعيين؛ لكي يكونوا أكثر تفهمًا، كما وجهه كذلك إلى ملوك ونبلاء فرنسا، مخاطبًا إياهم بلغة ساخرة؛ وذلك لاعتراضه على ممارساتهم الفاسدة وجهلهم (Luscombe, 1974, P. 84) في محاولة منه لتجاوز الأخلاق الأوغسطينية.(Demy, 1994, P. 112.)

أما **الهدف** من وراء هذا البحث فيكمن في المحاولة المتواضعة في كشف النقاب عن واحد من أهم فلاسفة العصور الوسطى الأوربية، إن لم يكن أهمهم على الإطلاق، ألا وهو بيير **أبيلار**، كما تهدف الدراسة في محاولة الوقوف على فكره الأخلاقي الوثيق الصلة بفكره الديني، ذلك الفكر الذي يعد بحق ثورة أخلاقية ودينية في ظل وجود الهيمنة الكنسيّة، وسنعوّل على **المنهج التحليلي النقدي المقارن** في معالجة هذه الدراسة.

ويمكن لنا الوقوف على حقيقة عقلانية الأخلاق المسيحية وتطبيقاتها التحررية عند أبيلار، خلال معالجتنا أربعة محاور رئيسة، وهي كالتالي:

- الخطيئة الفعليّة عند أبيلار.
- النيَّة عند أبيلار وأثرها على الخطيئة الفعليّة.
- الإرادة والشهوة عند أبيلار وعلاقتهما بالخطيئة الفعليّة.
- التطبيقات التحررية لأخلاق أبيلار العقلانيّة.

أولًا: الخطيئة الفعليّة عند أبيلار

لقد رفض **أبيلار** رفضًا تامًا خُضوع الإنسان للرذائل Vices والخطايا Sins، ونادى بأن العقل الإنساني وحده هو الذي لديه القدرة على تحرير الإنسان من هيمنة الرذائل، على ألا يكون مقيدًا، لا تمارس عليه أية سلطة لاهوتيّة أو كنسيّة، وهذا ما نادى به **أبيلار** قائلًا: «**ليست هناك مخاطرة في التمتع بالحرية الحقيقية في حين يتم التحكم في الجسد بطرق مختلفة؛ فإننا لا نمارس أي عبودية بغيضة طالما كان العقل حرًا، كما أنه ليس من الخزي أن تخدم إنسانًا وإنما من الخزي أن تخضع لإحدى الرذائل، كما أن العبودية** Slavery **للبدن هي تشويه للروح، وخضوع للرذائل**»،(Abélard, 1995, P. 2.) لذا يجب أن نقف على مفهوم **أبيلار** لكل من: الخطيئة والرذيلة؟

يعد مفهوم الخطيئة واحدًا من أهم المفاهيم المركزية التي عوّل عليها **أبيلار** في فلسفته الأخلاقية، فهو أساسٍ لمفاهيم: النيَّة، والإرادة، والمسئولية الشخصية عنده.

فلقد ذهب **أبيلار** إلى أن كل من الكتاب المقدس والتراث المسيحي الكلاسيكي يستخدمان مصطلح الخطيئة بدلالات مختلفة،(Kemeny,1991, P. 375) وهذا ما أكد عليه في كتابه "**الأخلاق**"، بقوله: «**... يجب أن نعلم أن كلمة خطيئة لها معاني مختلفة**»،(Abélard, 1995, P.25.) ويمكن إجمالهم في اثنين: **المعنى الأول** للخطيئة، وهو: "**ذنب النفس وعصيان الله بفعل إرادتنا الشريرة، والتي سنكون بسببها مذنبين أمام الله**"،(Abélard, 2011, P.215) وبالتالي، فهي: **ميل إلى الموافقة بما هو غير ملائم**،(Abélard, 1995, P.P.2,3) أما **المعنى الثاني** لها، فهو: **ممارسة أفعال شريرة فعليًا بكفاءة وفاعلية**. (Abélard, 1995, P. 25)

فبالنسبة لمفهوم **أبيلار** الأول عن الخطيئة، فذهب في إجابته عن سؤاله الذي طرحه في بداية كتابه "**الأخلاق**"، ألا وهو، «**ما الذي يمكن أن نُطلق عليه خطيئة بشكل صحيح؟**» (Abélard, 1995, P. 2.) معتمدًا على مفهومه عن الرذيلة، فذهب إلى أن الرذيلة هي: «**ما تجعل لدينا ميل واستعداد نحو الخطيئة**»،(Abélard, 1995, P. 2.) **ولكن ما**

هي الخطيئة؟ يرى **أبيلار** بأنها تتمثل في: «**... الميل إلى الموافقة والقبول والتسليم بما هو غير ملائم أو غير مناسب؛ فإما أن نفعله ونقوم به أو أن نتبرأ منه ونستنكره، فهذا القبول والرضا والموافقة هو ما يجب علينا أن نُطلق عليه خطيئة بشكل صحيح**»،(Abélard,1995,P.P.2,3.) ويرى كذلك أنه: «**من الممكن أن تعني كلمة "خطيئة" بالتحديد ازدراء الله، أو الموافقة على فعل الشر والخضوع له**».(Abélard, 1995, P. 25.)

يتضح من مفهوم **أبيلار** الأول للخطيئة أنها تقوم بشكل أساسي على قبولها والرضا بها، مؤكدًا بذلك على أن الخطيئة تعني الطبيعة الداخلية بشكل جوهري، (Kemeny, 1991, P.381.) وهذه الطبيعة الداخلية هي المسئولة عند **أبيلار** عن الموافقة على فعل الشر، (Demy, 1994, P. 106.) وبالتالي، فالخطيئة عنده تعني الميل نحو الموافقة على فعل الشر، سواء قام الإنسان بهذا الفعل أم لا، فإن مجرد الموافقة الداخلية على فعله تتحقق الخطيئة، ويكون الإنسان مخطئًا أمام الله.

كما تعني الخطيئة كذلك عند **أبيلار** عصيان لله، والاستخفاف بوجوده، حيث يقول **أبيلار**: «**من ثمّ تُعد الخطيئة استخفافًا بالخالق وازدراء له، وأن اقترافنا للخطيئة يعني إننا نستخف بالخالق، ولا نعمل من أجله ما يجب علينا فعله، أو ألا نعرض عما يجب علينا أن نعرض عنه**»، (Abélard, 1995, P. 3.) وبالتالي فالاستمرار في ارتكاب الخطيئة تشوه العلاقة المباشرة، تلك العلاقة التي يجب أن توجد بين الإنسان وربه. (Kemeny, 1991, P. 381)

فقد ذهب **ويليام تيري** إلى أن قول **أبيلار** بأن الخطيئة ليست رغبة Desire، ولا لذة شريرة An Evil Pleasure، ولا هي إرادة شريرة An Evil Will، وإنما هي في حقيقة الأمر طبيعة A Nature، بمعنى أنه يعتقد أن **أبيلار** يرى أن الفعل أو الرغبة ليست خطيئة ولكن الرغبة التي تمثل عصيانًا لله وأوامره هي التي يمكن أن نُطلق عليها خطيئة، إلا أن هذا الفهم لموقف **أبيلار، وفقًا لتيري**، لا يعكس كثيرًا عن أخلاق **أبيلار**، فهي تتضمن في حقيقة الأمر تناغمًا بين الفكر المنطقي Logical Thought من جهة والبصيرّة السيكولوجيّة Psychological Insight من جهة أخرى. (Cartwright, Intro, Abélard, 2011, P.P.55, 56.)

أما المفهوم الثاني للخطيئة عند **أبيلار** والذي طرحه، في كتابه "**الأخلاق**"، يتضح في قوله: «**إن الأعمال الفعلية لارتكاب الخطيئة التي نريدها ونفعلها، فإننا نُطلق عليها خطيئة، وذلك لأنه ما معنى أن يرتكب إنسان ما خطيئة بشكل متحمس، سوى كونه قد مارس فعليًا خطيئته بكفاءة وفاعلية.**» (Abélard, 1995, P. 25)

تجدر الإشارة هنا إلى أن **أبيلار** يريد أن يميز بين الخطيئة باعتبارها "عصيان Contempt لله"، و"الموافقة على القيام بما هو غير مناسب تجاه أمر ما"، والتي يُطلق عليها أحيانًا في التراث الكلاسيكي "الخطيئة الشكلية" Formal Sin أو "الخطيئة المادية" Material Sin وفقًا لمفهومه الأول، (McMahon, 2009, P.3.) وبين الخطيئة باعتبارها "ممارسة

أعمال خاطئة بفاعليّة"، وهي ما تسمى بالخطيئة الفعلية Actual Sin، وفقًا لمفهومه الثاني، وهي ما عوّل عليها **أبيلار** بشكل واضح في فلسفته عن العقلانية التي يجب أن تعكسها الأخلاق المسيحية.

كما يكشف هذا المفهوم، فيما يرى **بول كيميني** Paul Kemeny، عن ثلاثة مبادئ أساسية حول الذنب الذي يقترفه الإنسان: **الأول**، أن الذنب يوجد فحسب داخل النفس. **والثاني**، أن الذنب نتاج تفكير وحرية في القرار، أما **الثالث**، فهو المسئولية الشخصية عن ذلك الذنب الذي تم اقترافه.(Kemeny, 1991, P.381)

كما ذهب **أبيلار** في طرحه لمفهوم الرذيلة إلى أن **طبيعة جسم الإنسان وبنيته تجعله شهواني يميل بطبعه إلى التمتع بالمتع الحسيّة، أما المنتصرون على شهوانيتهم فهم الذين يتمتعون بفضيلة الاعتدال، فليس من العيب أن يهزمك إنسان مثلك، إنما العيب أن تهزمك الرذيلة؛ فالأولى من الممكن أن تقع للأخيار، أما الثانية، فتحدث عند تخلي الإنسان عن الفضائل،**(Abélard, 1995, P.2.) كما أن الرذائل عند **أبيلار** هي **ما تدفعنا نحو الرضا والقبول بما هو غير ملائم، كما أنها لا تتوقف على الإطلاق عن مهاجمتنا، حتى إذا توقفنا عن ممارستها، لذلك فمهاجمة الرذائل لنا تكون أشد خطرًا عند اقترافها بشكل متكرر،**(Abélard, 1995, P. 2.) ولكن، **متى تحدث الخطيئة الفعلية؟**

تحدث الخطيئة عند **أبيلار** عندما يكون فعل الموافقة؛ حر، ومتعمد، وشخصي، وتنشئ بفعل حافز طبيعي لدى الإنسان، كما أن الإرادة هي التي تصدر الرغبات الشريرة، إما لارتكاب الفعل الذي يعرف بأنه غير ملائم أو عدم ارتكاب الفعل الذي يعرف بأنه ملائم،(Kemeny, 1991, P.P.381,385) ولكن، **ما موقف أبيلار من الأطفال والمختلين عقليًا إزاء ارتكابهم للخطيئة؟**

لقد ذهب **أبيلار** إلى القول بأن: «**...الأطفال والمختلين عقليًا معفون من الخطيئة بشكل طبيعي، وذلك لكونهم مفتقرين إلى القدرة العقلية في التمييز بين ما هو خير وما هو شر في حديثهم أو في أفعالهم، وبالتالي فليس لديهم أي استحقاقات، كما أنهم ينقذون فحسب عن طريق الأسرار المقدسة** Sacraments»، (Abélard, 1995, P. 25.) ولكن، **هل اقتراف الإنسان للخطيئة يؤثر على كمال الله؟**

كما يرى **أبيلار** أن: «**الخطيئة هي ذنب تقترفه النفس الإنسانية، ومن ثمّ فهي تستحق الإدانة، لأنها مذنبة أمام الله، فيعد هذا الرضا والقبول للخطيئة امتهان لله وعصيان له، لكن لا يُمكن الإساءة إلى الله خلال اقتراف البشر للخطيئة؛ لأن كمال الله وقوته مطلقة ولا نهائية، ولا يمكن للأذى أو النقص أن يحط منه، لكنه سيحاسب البشر على الاستخفاف به وازدرائه**».(Abélard, 1995, P. 3.)

كما أن **أبيلار** بعد أن طرح مفهومه عن الخطيئة، لم يوافق عليه بشكل مطلق بل أفرد مكانة كبيرة لدور كل من: "النيَّة" و"الإرادة" في تحديد ماهية الخطيئة، وكذلك في تحديد ما يمكن أن نُطلق عليه بشكل دقيق إنه خطيئة، فلقد صرّح بقوله: «**أرى أننا إذا دققنا النظر، فعلينا أن ننظر إلى الخطيئة بطريقة مختلفة عما تبدو عليها، حيث أننا نخطئ أحيانا دون نيّة أو إرادة سيئة، وعندما تُكبح الإرادة السيئة دون أن تخمد، ...، لذلك، فهي ذاتها ينبغي ألا تُسمى "خطيئة"، بل هي نوع من المرض الذي يكون ضروريًا في الوقت الحالي في هذه الحياة**».(Abélard, 1995, P. 3.) ووفقًا لذلك فقد

عوّل **أبيلار** في طرحه لمفهوم الخطيئة على مصطلحات الموافقة، والرضا، والنيَّة، وبالتالي، فالخطيئة عنده هي "قرار داخلي" Interior Decision أكثر من كونها "فعل خارجي" Exterior Act، وبناءً عليه، فالأفعال متباينة أخلاقيًا. (Cartwright, Intro, Abélard, 2011, P.P. 56, 57)

يتضح مما سبق أن مفهوم **أبيلار** للخطيئة يتضمن أوجه من الاختلاف والاتفاق بين كل من الأوغسطينيين والبيلاجيين، فهو يختلف عن الأوغسطينيين من حيث إن الخطيئة تعني عندهم البعد عن الله، وتحدث نتيجة لفساد العقل، ويختلف كذلك عن مفهوم البيلاجيين للخطيئة، لأنهم يركزون على الأفعال السيئة فحسب، ويتفق في الوقت ذاته كل منهم مع **أبيلار** في إقرارهم بأن الخطيئة ليست شيئًا جوهريًا،(Kemeny, 1991, P.P. 381,382) وكون الخطيئة هي في داخلنا عند **أبيلار**، فهي مشكلة شخصية، ولكي يمحوها الله، عليه أن يغيرنا من الداخل، وهذا أمر يختلف تمامًا عن وجهة نظر **القديس أنسلم** القائلة بأن الخطيئة مشكلة موضوعيّة، وإنها عنده شيء ما مُسجل في ماهية وجود الإنسان، يمحوها الله بطريقة ما. (هيل، 2012، ص 152.)

كما تأثر **أبيلار** بالنظرية الأوغسطينية في تأكيدها على الموافقة على الشر بشكل إرادي هو شرط للخطيئة، كما تأثر كذلك بالنظريات التي كانت سائدة آنذاك، وبشكل خاص بنظرية **أنسلم اللاوني**(1050 –1117) Anselm of Laon التي تؤكد على أنه يتم الانتقال من الفكر إلى الفعل في الخطيئة، إلا أنه من الصعب تحديد ما اقتبسه **أبيلار** من نظرية **أوغسطينيوس** وما تعلمه من دراسته في **ليون**.(Cartwright, Intro, Abélard, 2011, P.P. 55, 56.)

فبعد أن قدم **أبيلار** مفهومه عن الخطيئة، وجد أن ذلك المفهوم غير دقيق وغير جامع في الوقت ذاته، وقد رأى ضرورة وضع معيارٍ من شأنه أن يضبط ذلك المفهوم، وما يمكن وما لا يمكن أن يندرج تحته من أفعال إنسانيَّة، خاصة وأن **أبيلار** قد لاحظ وجود عديد من الأفعال الإنسانيَّة تظهر وكأنها أفعال خاطئة لكن في حقيقة الأمر هي أفعال خيّرة، وبالمثل هناك كثير من الأفعال تظهر وكأنها أفعال خيّرة، وهي في حقيقة أمرها أفعال خاطئة وشريرة، لهذا عزم **أبيلار** على وضع معيار من شأنه أن يُقاس به خَيريّة الفعل من شره، ويتمثل هذا المعيار في "**النيَّة**" Intention، وهذا ما يجعلنا نسأل، **ما مفهوم النيَّة عند أبيلار، وما أثرها على الخطيئة؟**

ثانيًا: النيَّة عند أبيلار وأثرها على الخطيئة الفعليّة.

يُعد مفهوم النيَّة واحدًا من أهم المفاهيم الأخلاقية التي عوّل عليها **أبيلار** في طرح وتأسيس عقلانيّة الأخلاق المسيحية عامة وشخصانيّة الخطيئة الفعلية خاصة، وسنعالج مفهوم **أبيلار** عن النيَّة، ومدى علاقته بحياديّة الأفعال الإنسانية، وكذلك، إيضاح أثره على التقييم الإلهي والإنساني للأفعال البشرية، وكذلك أثر النيَّة على كل من: الأخلاق البروتستانتية والكانطية.

1. النيَّة وحيادية الفعل الإنساني عند أبيلار.

ذهب **أبيلار** إلى أن "**النيَّة**" هي الأداة الوحيدة لتقييّم الفعل الإنساني، لأنها تحدد قيمته الأخلاقيّة، (Demy, 1994, P. 106) حيث قال: «**في الحقيقة، نحن نقول إن القصد الصالح، هو خيّر في ذاته، في حين الفعل صالح، لا لاحتوائه في حد ذاته على أي نوع من الخيريّة، بل لأن مصدره خيّر، ومن هنا يمكن القول إن نفس الشيء يمكن أن يحدث عن طريق نفس الإنسان في أوقات متباينة، ومع ذلك يمكن أن يُقال أحيانًا على هذا الفعل أنه خيّر وأحيانًا أخرى أنه شرير، وذلك بسبب اختلاف في القصد والنيَّة، وبالتالي تغيرت علاقته بالخير والشر**»،(Abélard, 1995, P.3.) وبذلك فحيادية Indifferent الأفعال الإنسانية واحدة من أهم النظريات التي عوّل عليها **أبيلار** في إبراز مكانة النيَّة في تقييم الأفعال الإنسانيَّة، وتنص هذه النظرية بشكل عام على «**أن الأفعال الإنسانيَّة لا تُعد في حد ذاتها خيّرة أو شريرة، وإنما هي على الحياد، وتصبح خيرًا أو شرًا بالقياس إلى مقصدها، إن كان مقصد صاحبها نبيلًا كان الفعل خيرًا، وإن كان المقصد حقيرًا كان الفعل شرًا بصرف النظر عن نتائجه**»، وقالت بهذه النظرية الرواقية في اليونان، والأشاعرة في الإسلام، وبعض المحدثين من علماء الأخلاق. (سدجويك، 1949، ص242.)

بذلك عُدّ **أبيلار** واحدًا من أهم الفلاسفة المسيحيين الذين نادوا بهذه النظرية، حيث أكد على أن كل الأفعال الإنسانيَّة هي أفعال حيادية في حد ذاتها، وهي "أفعال خيرة" أو "أفعال شريرة" وفقًا لنوايا أصحابها،(Luscombe, 1974, P. 80.) وذلك وفقًا لقوله: «**... إن كان قصدك حسنًا، فإن كل الأفعال النابعة منك أفعال خيّرة، والعكس صحيح، لذا فلا يجب أن تعتقد أن هناك قصد صالح لأنه ببساطة يبدو صالحًا، بل لأنه في الحقيقة يكون صالحًا، فعلى سبيل المثال: غير المؤمنون كان يمكنهم أن يقوموا بأعمال صالحة مثلنا تمامًا، إلا إنهم يعتقدون أنهم يرضون الله بأعمالهم**»(Abélard, 1995, P.3.) التي يقومون بها، حتى ولو كانت هذه الأعمال تسيء لعقيدتنا.

فكما أن الخطيئة عند **أبيلار** هي: «الموافقة على فعل الشر وعصيان الله»، (McMahon, 2009, P.2.) فالنيَّة عنده ليست مرادفة للموافقة؛ لأن الموافقة تمثل قرار متعمد وباعث على تحفيز الإرادة، أما النيَّة، فهي تقرير تقييم أخلاقي للفعل؛ فالنوايا الخيرة يمكن أن تنتج أفعالًا خيرة وأفعالًا سيئة على حد سواء، وبالتالي، فالنيَّة عند **أبيلار** هي التي تحدد نوعيّة الفعل إما أن يكون فعلًا مذنبًا أو فعلًا خيرًا،(Kemeny, 1991, P.P. 384, 385) وهي أصل العمل، وبها وحدها يجب أن يُقيّم العمل، ويجب ألا تفهم النيَّة على أنها ما يحيل للإنسان أنه صحيح، بل هي ما يعتقد الإنسان أنه مطابق للواقع،(بدوي،1979، ص84.) فالنيّة لا الفعل هي جوهر أخلاق **أبيلار**.

فلم يتردد **أبيلار** في استنباط أنه ما دامت استقامة السلوك تتوقف على المقصد وحده، فإن كل الأفعال الظاهرة تكون من حيث هي كذلك على الحياد، إلا أن **أبيلار** يتحاشى النتائج الخطيرة التي قد يُسفر عنها هذا التناقض الظاهري بتضحية شيء من التناسب والاتساق، وذلك بقوله "المقصد الطيب" يجب أن يفهم على أنه قصد الإقدام على فعل ما هو صواب حقًا، وليس ما يبدو لصاحب الفعل أنه كذلك.(سدجويك، 1949، ص242)

فقًا لذلك، فإن غرض **أبيلار** من طرحه لمفهوم النيَّة، **فيما يرى ليوسكومبي**، هو إعادة تنظيم اللغة الكلاسيكية، حيث قام **أبيلار** بإعادة صياغة المفردات والأفكار الأوغسطينية الأكثر جمودًا، وأعطى أهمية بالغة للموافقة، والقبول، والرضا فيما يتعلق بفكرة الخطيئة، وبذلك يوافق **أبيلار** على ما قاله **أوغسطينيوس** بأنه من أجل اكتساب الفضيلة لابد من توفر نيَّة خيرة، وأن ارتكاب الذنب لابد من توافر نيَّة سيئة. (Luscombe, 1974, P.81) هذا فضلًا عن الغرض الأخر بل والأهم من مفهوم النيَّة عند **أبيلار** وفقًا لمؤلفه "**رسالة بولس إلى أهل رومية**" فهي دعوة إلى التواضع الحقيقي والوئام والتناغم بين كل من الرومان Romans، واليهود Jews، والكفار Gentiles، الذين دائمًا ما كانوا يتفاخرون ويدعون التفوق بعضهم على بعض،(Williams, 2006, P. 261) ووفقًا لذلك، طالما أن النيَّة هي أساس الأفعال الإنسانية الخيّرة والشريرة، **فهل يتفق التقييم الإلهي مع التقييم الإنساني للأفعال عند أبيلار؟!**

2. النيَّة ودورها في التقييم الإلهي والإنساني للأفعال البشرية.

لقد ذهب **أبيلار** إلى أن ما يجب أن تهتم به الأخلاق في حقيقة الأمر هو النيَّة والقصد، فعندما يرغب الإنسان في فعل شيء ما؛ فإن المهم هو النيَّة، أي ما نتطلع داخليًا للقيام به، وبالتالي فإن تحديد صحة الفعل وصوابه يقوم في المقام الأول على النيَّة، (McMahon, 2009, P.P. 1,2.) وهذا ما أكد عليه **أبيلار** بأن الله يحاسب الإنسان على أفعاله إما بالخير أو بالشر، وهذا الحساب في حد ذاته ليس بناءً على أفعال الإنسان الظاهرة، بل بناءً على نية الإنسان عندما قام بالفعل.(Kemeny, 1991, P.385.)

بالتالي، فالخطيئة عند **أبيلار** ليست هي في الفعل بل في القصد، ويعطي مثالًا على ذلك، بأنه إذ قتلتُ شخصًا ما عن طريق الخطأ، فأنا لم أرتكب خطيئة بالرغم من أنني قد أكون مهملًا، بمعنى أنه إذا قتلت شخصًا ما فالقتل في حد ذاته ليس خطيئة، حتى إن الفكرة الأساسية لهذا الفعل ليست خاطئة أيضًا؛ لأن هذا مجرد إغواء فحسب، لكن الخطيئة توجد في حقيقة الأمر في قراري لتنفيذ هذه الرغبة، وكذلك إذا نويت قتل شخص ما، ولكنني فشلت في تنفيذه، فسأكون مذنبًا لا محالة، ونتيجة لذلك أنكر **أبيلار** كون البشر يرثون ذنب الخطيئة الأولى عن آدم، لأن الإنسان ينال الذنب بسبب مقصده ونيته الآثمة. (هيل، 2012، ص 152)

فقًا لما سبق، فإذا كانت النيَّة عند **أبيلار**، هي معيار تقييم الفعل، فيجب علينا الأن أن نتساءل، **هل يحاسب الله البشر على نواياهم أم على أفعالهم؟ وهل محاسبته لهم مثل محاسبة القانون الوضعي[2] والأخلاقي[3]؟**

حاول **أبيلار** أن يُلقي الضوء على كل من: **نيَّة الإنسان** التي غالبا ما تبقى خفية عن الأنظار و**قصد الله** الذي من الصعب الوصول إليه، وفي أحد تعليقات **أبيلار** على "**شرح رسالة بولس إلى أهل رومية**" نجده يُفضل ما هو داخلي على ما هو خارجي بشكل قصدي في كل الأفعال الإنسانية. (McMahon, 2009, P.5.)

فلقد ذهب **أبيلار** إلى أن الله لا يحاسب الإنسان على الأفعال إنما يحاسبه على النوايا، فالجدارة والثناء تعود على الإنسان ليست نتيجة لأفعاله Actions وإنما نتيجة لنواياه Intentions،(Luscombe, 1974, P. 80.) فالفعل الأخلاقي

لا يجعل صاحبه أفضل أو أسوأ أمام الله، ولكن نيَّة الفعل هي المحك، فهي التي تمثل مكان الصدارة والنقطة الجوهرية عند الله، ومن ثم فكافة الأفعال ليست صالحة أو فاسدة في حد ذاتها، وإنما النوايا فحسب المقصد، ومن ثم فالخطيئة لا تعني شيئًا في ذاتها، لذلك يرى **أبيلار** أن الله يرى بطريقة لا يمكن أن تقارن بما يراه الآخرون، فلا يضع في اعتباره الأفعال حين يعاقب على الخطيئة، ولكنه يهتم بالنوايا ويركز عليها (برماوي، 2009، ص 437) في المقام الأول.

فعندما ينتظر اللص حلول الظلام؛ ليرتكب جريمة نوى على اقترافها فهو يكون قد ارتكبها بالفعل أمام الله، لأنه عزم على القيام بهذا العمل، والله مطلع على عزمه، ومن ثم فقد ارتكبت الجريمة بالفعل، وربما لا يعرف الإنسان نفسه بأي قلب ارتكبها، وما المنبع الذي تصدر عنه أفعاله، ولكن الله يعلم ذلك، فالفعل الأخلاقي يكون شفافًا أمام الله وحده، ومعتمًا علينا نحن الذين نفعله، وذلك لأن الإرادة تصرح لله بنواياها الداخلية، فالله يرصد ما يفعله الإنسان، كما يراقب نوايا القلوب، وهو يزن أخطاءنا بميزان نوايانا، أي أنه يفحص قلوبنا ويحاسب كل البشر.(جلسون،2011، ص 389، 392)

كما يرى **جلسون** أن البشر يفعلون عكس ما يفعله الله، فلا يضعون في اعتبارهم النوايا، ولكنهم يعاقبوا على الفعل الذي في متناول أيديهم، والذي بإمكانهم مشاهدته، فليس هناك في الواقع خطايا سوى خطايا النفس وحدها، أي النفس التي تغذي هذا الفعل تمامًا، كما أنه ليس هناك خير أخلاقي إلا في الروح التي تتجسد في الفعل الخيّر وتضفي عليه صفة الخيريّة، كما أنه لا شك أن هذه استعدادات ضرورية، لكن لو تذكرنا وجود القانون الإلهي الذي يحكم على كل من: النوايا والأفعال، ليتبين لنا بوضوح أن الاستعدادات ليست كافية، إذ لابد أن يكون هناك شرط سابق قبل أن تتحدد فكرة الأخلاق تحديدًا كاملًا، (جلسون، 2011، ص392) وبالتالي فالبشر يحكمون على الأفعال فحسب، ولا يعاقبون وفقًا للنيَّة بقدر ما يعاقبون وفقًا للأعمال، وهم لهذا لا يتبعون المعيار الموضوعي الإلهي.(بدوي، 1984، ص 92)

فبعد أن عالجنا كون النيَّة هي معيار تقييم الفعل الأخلاقي عند **أبيلار**، إلا إنه وفقًا لذلك المعيار يتباين التقييم الإلهي عن التقييم الإنساني، فالله لديه القدرة المطلقة لمعرفة النوايا الحقيقية لجميع البشر، أما البشر ليس لديهم القدرة على معرفتها، وبالتالي فهم يحكمون على الفعل في ذاته وليس على نيَّة فاعله، وبالتالي فإنهم يقعون في كثير من الأخطاء في تقييمهم الأخلاقي والقانوني والعقائدي، ولكن إذا كانت النيَّة وحدها هي التي تحدد إدانة أو براءة الفعل، **فما موقف أبيلار من الأفعال التي تعد شريرة وارتكبت بجهل؟**

يرى **أبيلار** أن تلك الأفعال التي ارتكبت بجهل ليست شريرة أو آثمة على الإطلاق، حتى جهل عدم الإيمان فلا يعده فعلًا آثمًا،(Demy, 1994, P. 106.) وطرح **أبيلار** عدة أمثلة يُقرب بها وجهة نظره، ومن أهمها، عندما يرغب صيّاد في اصطياد حيوان، ويقتل رجلًا عن طريق الخطأ، فالنوايا الخيّرة هنا نتج عنها فعل سيء، فهذا الفعل من قِبل الصياد لا يُعد خطيئة، واللذين صلبوا المسيح ليسوا مذنبين عند **أبيلار**؛ لأنهم لم يكونوا على عِلم أو دراية بحقيقة ما يقومون به، وأن جهل الكفار هذا عنده ليس خطيئة. (Kemeny,1991, P.384)

إن اهتمام **أبيلار** بقضية النيَّة جعلته يتفق مع كل فلاسفة الأخلاق المسيحيين المتأخرين، فإنه مهما كان ضروريًا أن نضع نيَّة الضمير في قلب الأخلاق، فإنها لا تكفي بذاتها لتعريف الأخلاق، إذ أنه فيما وراء ما يبدو لنا خيرًا أو شرًا هناك ما هو خير وشر بالفعل،(جلسون، 2011، ص 394، 395) كما كان لنظرية **أبيلار** عن النيَّة أثرًا عظيمًا على الفكر البروتستانتي والكانطي، فلقد وجد البروتستانت في أفكار **أبيلار** الأخلاقية والدينية ما يحتاجون إليه، كما اعتمد **كانط** بشكل أساسي على أخلاق **أبيلار** في طرح فلسفته الأخلاقية، وهذا ما أكد عليه **بول تلش** بقوله: «**كانت تصورات أبيلار للنيَّة سابقة على تصورات كل من البروتستانت وكانط**».(تلش، 2012، ص 200)

فلقد تنبأ **أبيلار** بأفكار تبناها فيما بعد عديد من الفلاسفة المحدثين أمثال **كانط** في "**الميتافيزيقا**"، فكان **أبيلار** سلفًا له، رغم من الفارق الزمني بين زمن الاثنين وموقفهما، فلقد أكد **أبيلار** على أن العقل ذاته لا يكون خيرًا أو شرًا، غير أن الغرض هو الذي يجعله هذا أو ذاك، هذا يعني أن العقل نفسه عند **أبيلار** لا يتصف بشيء، والشيء الحاسم هو الغرض، ففي الغرض يكون الاستحقاق أو الجزاء، ولهذا، فإن ما يجعلنا على خطأ ليس هو الطبيعة ذاتها، ولا حتى الرغبة ذاتها، وإنما الغرض والإرادة، كما أن مضامين المذهب الأخلاقي ليست هي الشيء المهم، إنما المهم هو ما إذا كان الضمير يتابع هذه المضامين أم لا، فمضامين المذهب الأخلاقي تكون دومًا محل شك عندما تطبق على موقف عيني، فهي لا يمكن أخذها كمضامين مطلقة، غير أن الضمير لا بد أن يكون هو المرشد، صحيح أن الخير الكامل يتمثل في التطابق التام بين المعيار الموضوعي والغرض الذاتي، في حالة ما يوضح الضمير ما هو صواب بالفعل، غير أنه كثيرًا ما لا يكون ذلك هكذا، وعندما لا يكون ذلك هكذا، فمن الأفضل أن نتابع ضميرنا، حتى وإن كان على خطأ من الناحية الموضوعية.(تلش، 2012، ص 200)

كما اتفق **كانط** مع **أبيلار** عندما ذهب إلى أنه لا شيء خير سوى الإرادة الخيّرة، عندما ذهب كانط في كتابه "**تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق**": «**من بين الأمور التي يمكن تصورها في هذا العالم، أو خارجه، لا يوجد شيء يمكن عده خيرًا على وجه الإطلاق ودون قيد، اللهم إلا شيء واحد هو الإرادة الخيّرة**»،(كانط، 1965، ص 17) وبالتالي فالنيَّة هي كذلك العنصر الأساسي في أخلاق **كانط**، طالما دامت الإرادة خيّرة في ذاتها وليس بالنتائج التي تترتب عليها،(مهران، 1998، ص 158) أيًا كانت تلك النتائج خيرة أو شريرة.

كما أكد **جلسون** اقتراب **أبيلار** من الأخلاق الكانطية، فلقد ذهب إلى إنه بالنظر في فلسفة **أبيلار** الأخلاقية يتضح إننا نقترب اقترابًا شديدًا من أخلاق النيَّة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، وإذا كان فلاسفة الأخلاق في العصر الوسيط لم يصلوا إلى ما وصل إليه المذهب الكانطي في الفلسفة الحديثة فليس ذلك لأنهم فشلوا في تصور إمكانية وجود مثل هذه الفلسفة الخلقية، بل إنهم رفضوا وجودها، **فأبيلار** فيما يبدو اقترب من الأخلاق الكانطية أكثر مما اقترب أي فيلسوف آخر طالما أن إنجاز الفعل أو عدم إنجازه لا يؤثر في رأيه في أخلاقية القرار.(جلسون، 2011، ص 394)

ثالثًا: الإرادة والشهوة عند أبيلار وعلاقتهما بالخطيئة الفعليّة.

إن الإرادة والشهوة من أهم المسائل وثيقة الصلة بالخطيئة الفعليّة عند **أبيلار**، والتي عوّل عليها بشكل كبير في تحديد مفهوم الخطيئة، وسنتناول كل منهما بشيء من التفصيل، مع بيان مدى علاقة كل منهم بالخطيئة الفعلية.

1. الإرادة عند أبيلار لا ترادف الخطيئة بالضرورة.

ذهب **القديس أوغسطينيوس** في مسألة الإرادة الشريرة ومدى علاقتها بالخطيئة، إلى القول بأن "**كل خطيئة هي خطيئة إرادية**"، وذهب كذلك **القديس أنسلم** إلى أنه "**لا أحد يخطئ بلا إرادة**"،(Cartwright, Intro, Abélard, 2011, P.58.) إلا أن **أبيلار** رفض موقفهما، وعوّل على مفهوم الإرادة؛ ليشير إلى الشهوات والرغبات الخيرة والشريرة على حد سواء،(McMahon, 2009, P.2.) حيث قال: «**... فعندما ننوي اقتراف فعلًا سيئًا فهو خطيئة، وهذا ما يجعلنا جميعًا مذنبين أمام الله، بالضبط كما يحدث عندما ننوي اقتراف فعلًا خيّرًا، فيجعلنا هذا على صواب دائمًا، ووفقًا لذلك فكما أن هناك فضيلة في الإرادة الحسنة، هناك خطيئة في الإرادة السيئة، كذلك توجد خطيئة ليس فحسب في الوجود لكن كذلك في اللاوجود، فكما أننا نكون على استعداد أن نفعل ما نعتقد أنه يُرضي الله، فإننا نقوم به لاسترضائه، كذلك فمن خلال الإرادة نفعل ما نؤمن به، فمن خلال الإرادة فإننا نقوم بما نعتقد أنه يغضب الله، وقد يثير غضبه بالفعل، فإننا عندما نؤمن بذلك فإننا نبدو كمن يستهين به ويزدريه.**» (Abélard, 1995, P. 3.)

بالتالي فالخطيئة عند **أبيلار** ليست هي نفس الشيء باعتبارها إرادة شريرة، حيث يمكن للمرء أن يخطئ بدون إرادة شريرة، (Kemeny, 1991, P.382) ويمكن للإنسان أن يوافق على القانون في عقله إلا أنه لا يزال يفعل الشر، (Cartwright, Intro, Abélard, 2011, P.58.) حيث يقول **أبيلار**: «**قد أقوم بفعل ما لا أرغب في فعله**»، (Abélard, 2011, P.27) فيتساءل **أبيلار** متعجبًا **كيف نقول إن الخطيئة إرادية؟ وأن إرادتنا تعصي الله، لذلك، لا أرى كيف هذه الموافقة التي لا نريد القيام بها من الممكن أن نُطلق عليها إرادية، طالما إنه لا توجد خطيئة بشكل واضح في ما لا يمكن تجنبه.**(Abélard, 1995, P. 17)

يخلص **أبيلار** من كل ذلك إلى القول بأنه: «**إذا لم ترتبط الخطيئة بالإرادة السيئة، فإن تلك الخطيئة لا تكون إرادية في كل الأوقات**».(Abélard, 1995, P.9) وبهذا فرّق **أبيلار** بين نوعين من الإرادة، هما: الإرادة السيئة والإرادة غير السيئة، الأولى تكون مرادفة للخطيئة، أما الثانية فهي لا تكون مرادفة للخطيئة بالضرورة.

يعطي **أبيلار** عديدًا من الأمثلة لتقريب وجهة نظره، من أهمها، أنه في حالة الخادم الذي يسعى للحفاظ على حياته من محاوله قتل سيده له، حيث يفعل الخادم كل ما في طاقته؛ لتجنب قتله على يد سيده، لكن في النهاية، يجد الخادم بأن الطريق الوحيد الذي من الممكن أن يحفظ به حياته هو قتل سيده،(McMahon, 2009, P.3) يقول **أبيلار**: «**فلنفترض أن هناك خادمًا صالحًا إلا أن سيده يمتلئ غضبًا منه، إذ يمسك السيد نصلًا حادًا خارج غمده، يطارد به خادمه ليقتله، إلا أنه يفر من سيده لفترة طويلة، ويتجنب أن يقتله قدر استطاعته، ولكن في النهاية، وتحت إكراهه وضد رغبته يقتل الخادم سيده حتى لا يُقتل هو على يديه،...، أخبرني أي إرادة سيئة كانت لدى ذلك الخادم عندما اقترف ذلك الفعل! فإذا كان قد أراد أن يَفر من الموت، فإنه أراد أن يحفظ حياته، لكن هل كانت هذه الإرادة هي إرادة إنسان**

سيء؟»(Abélard, 1995, P. 3) ويجيب **أبيلار**: «**لقد كان ذلك ضد إرادته، وتحت إكراه، حيث فعل ذلك من أجل حفظ حياته قدر المستطاع، كما أنه أدرك الخطر الذي هدد حياته، ومن ثم كيف فعل ما فعله طواعية في وجود ذلك الخطر!**» (Abélard,1995,P. 3.)

يفترض **أبيلار** أن أحدًا ما يعترض على موقفه، حيث يقول: «**فلو إنك أجبت بأن هذا قد تم بمحض الإرادة، وكونه جليًّا لأنه جُلب لهذا الفعل بشكل إرادي، ليفلت من الموت وليس لقتل سيده بإرادته، فنحن لا نفند هذا، ولكن تلك الإرادة لا يمكن التنديد بها كفعل مشين، ولكن كما تقول إنه بفعله هذا أراد أن يتجنب الموت، لا أن يقتل سيده، إلا أنه أخطأ عندما وافق على القتل الخطأ (بالرغم من أنه كان مُكرها بخوفه من الموت)، فكان عليه أن يتحمل، لا أن يوقع العقوبة؛ لا ريب أنه أخذ السيف بنفسه، ولم تُفرض عليه إرادة أحد، ...، فقد أراد أن ينجو من الموت فحسب، لا لأن يقتل سيده، لكن كونه وافق على القتل، ولم يكن له ذلك، فإطاعته الظالمة التي سبقت القتل تعد خطيئة**».(Abélard, 1995, P. 4.)

فقد أثار موقف **أبيلار** ومثاله السابق مواقف متباينة بين القبول والرفض من قبل عديد من الباحثين، فالبعض وافق ومن أشهرهم **بول كيميني** Paul Kemeny والآخر رفض ومن أشهرهم **كيفان ماكماهون** Kevin McMahon، فيتضح من مثال **أبيلار** فيما يرى **كيميني**، أنه عندما قتل الخادم سيده، وهو في حالة الدفاع عن النفس؛ فإن الخادم قد فعل هذا الفعل وهو غير راغب فيه، ولم يكن تحت أي إكراه، فلقد رغب أن يتجنب الموت فحسب، لا أن يقتل سيده، فإرادته كانت إرادة خيرة،(Kemeny, 1991, P. 382) أما **ماكماهون** فيرى أننا لا نستطيع أن نتفق مع ما طرحه **أبيلار**، أن ذلك الرجل تصرف بإرادته السيئة، وبسبب الإرادة الخيرة حافظ على حياته، وفعل القتل نفسه كان قام بأدائه وهو غير راغب فيه، ورافضه، ومتمنع عنه، وليس بفعل إرادته، ومع ذلك، حتى إذا كان أدى ذلك دفاعًا عن النفس، فالفعل يتضمن الموافقة على عملية القتل بدلًا من الابتلاء باللعنة، فهذا الفعل، هو خطيئة، وهذا الرجل مدان بهذا الفعل. (McMahon, 2009, P. 3)

فلقد ذهب **أبيلار** كذلك إلى أن: «**الخطيئة تُقترف أحيانًا دون وجود إرادة سيئة على الإطلاق، ولذلك فالإرادة لا يُقال عنها أنها خطيئة، لكن هذا يحدث عندما نقترف خطيئة تحت إكراه، لكن لا يحدث نفس الأمر عندما نقترف خطيئة بمحض إرادتنا**»،(Abélard, 1995, P.5) فيقدم لنا **أبيلار** أحد الأمثلة التي تدلل على صحة موقفه، فعند رؤية امرأه بالغة الجمال، يشعر الرجل برغبات قوية في ممارسة الرذيلة معها،(Kemeny, 1991, P.382) حيث يقول **أبيلار**: «**إذا أردنا أن نقترف أمرًا ما ونعلم أنه لا ينبغي لنا اقترافه، ففي هذه الحالة يبدو أن الإرادة السيئة والخطيئة متشابهتان، فمثلًا، عندما يرى المرء امرأة، ويتحرق شوقا إليها، حيث يُثار بمتعة الرذيلة، مما يؤدي إلى أن اضطرام جسده بممارسة الرذيلة، لذلك فإنك تقول ما حقيقة هذه الإرادة والرغبة إذا لم تكن خطيئة؟**»(Abélard, 1995, P. 5)

كما يرى **أبيلار**: «**إن عدونا هو نيتنا السيئة، تلك النيَّة التي ننتصر عليها حينما نُواجِهُهَا بالإرادة الإلهية، لكننا في الوقت ذاته لا نقضي عليها تمامًا؛ لذا فدائمًا ما تكون هناك نيّة قد نصارعها.**»(Abélard, 1995, P.5.) ولكن

يتساءل **أبيلار**، **ما الذي نستحقه من أفعالنا أمام الله، سواء أكان ذلك إرادي أو غير إرادي؟** ويرد قائلًا: **بأنه بالطبع لا شيء نستحقه، لأنه حين يمنح الجزاء، فإنه يضع في الاعتبار الفكر لا الفعل (العقل وليس العمل)؛ فالفعل لا يُضيف أي شيء لاستحقاق الجزاء، سواء نبعت من الإرادة الحسنة أو من الإرادة السيئة.**(Abélard, 1995, P. 6.)

لكن، **كيف يمكن التغلب على إرادتنا السيئة؟** يمكن ذلك عند **أبيلار** عندما تُخضع الإرادة السيئة للإرادة الإلهية، حيث يقول **أبيلار**: «**لكننا عندما نفضل إرادة الله على إرادتنا، فإننا نتبع إرادته بدلًا من اتباع إرادتنا، كذلك فإننا نحرز فضيلة عظيمة أمامه، ووفق كمال الحقيقة**»(Abélard, 1995, P.6.) ويرى كذلك بأننا ننتصر على إراداتنا السيئة فحسب عندما نخضعها إلى الإرادة الإلهية، إلا أننا لا نقوم بإخمادها أو حتى بالقضاء عليها.(Abélard, 1995, P. 4)

وفقًا لما سبق، فالخطيئة ليست إرادية بسبب استثناء **أبيلار** من عالم الإرادة الاختيارية الممكنة ما هو ضروري، لهذا فإن مطابقته للإرادة مع الشهوة، واهتمامه بالمسئولية الإنسانية تقوده إلى استنتاج أن الخطيئة ليست إرادية بالضرورة، وعلى الرغم من أن المصطلحات التي يستخدمها **أبيلار** هي مصطلحات أوغسطينية إلا أنه في الوقت ذاته يؤكد على المسئولية الأخلاقية التي نادى بتطبيقها **بيلاجيوس**، (Kemeny, 1991, P.383)، والآن بعد إقرار **أبيلار** بأن الخطيئة ليست إرادية بالضرورة، **فما علاقة الشهوة بالإرادة؟ وما دورها في ارتكاب الخطيئة؟**

2. الشهوة عند أبيلار.

تعد **الشهوة** Concupiscence أحد أهم الرذائل التي عالجها **أبيلار** في سياق طرحه للخطيئة الفعليّة، حيث يرى أن الشهوة في حد ذاتها ليست خطيئة، إنما الخضوع لرغبة الشهوة هو ما يمثل الخطيئة في حقيقة الأمر.

ميّز **أبيلار** بين الشهوة وفعل الخطيئة؛ فالشهوة هي خطيئة متضمنة للإرادة، والإرادة بالنسبة **لأبيلار** هي ميل النفس التي تحكم وتختار تجاه فعل ما، وأحكام الله هي قرارات الإرادة، أو بالأحرى أفعال الإنسان، فحرية الاختيار تنتمي للإرادة، (Cartwright, Intro, Abélard, 2011, P. 58) حيث يقول **أبيلار**: «**لأن الله يقول "لاَ تَتَّبِعْ هَوَاكَ وَلاَ قُوَّتَكَ، لِتَسِيرَ فِي شَهَوَاتِ قَلْبِكَ"، وبالتالي فقد أمرنا الله ألا نُشبع رغباتنا، وألا نعمل دونها بشكل تام؛ لأن إشباعها أمرًا خبيثًا، لكن العمل بدونها مستحيل في حالتنا السيئة، ولذلك لا يُعد التوق لسيدة هو الخطيئة، بل الخطيئة هي ذلك الخضوع لتلك الرغبة، كما أنها ليست إرادة ممارسة الرذيلة معها هو الأمر السيء، بل الأمر السيء يتمثل في تلبية إرادة ممارسة الرذيلة معها**».(Abélard, 1995, P. 6.)

يعطى **أبيلار** مثالًا يَقرب به وجهه نظره، في موقفه من الشهوة ومدى تمايزها عن الخطيئة، بقوله: «**... فلنفترض أن شخص ما يمر ببستان شخص آخر، وعندما يرى الفاكهة اللذيذة، فيشتهيها، لكنه لا يرضى تلبية تلك الشهوة، فهو لا يمكن أن يسلب شيئًا ما عن طريق السرقة، بالرغم من أن عقله اشتعل برغبة شديدة لتذوق الطعام، والآن بما أن هناك رغبة فلابد أن تكون هناك إرادة؛ لذلك فإن ذلك الشخص يرغب في أن يأكل من تلك الفاكهة، ولا يشك على الإطلاق في عدم وجود متعة في تناولها، فهو مُنقاد بالفعل بالطبيعة الأساسية لحالته الواهنة في رغبته في الحصول**

على ما لا يجوز له الحصول عليه دون معرفة صاحبه وإذنه، ولذلك فإنه يكبح رغبته، لكنه لا يقضي عليها تمامًا، لكن لأنه لم يُستدرج للإذعان لذلك، فإنه لا يسقط في الخطيئة». (Abélard, 1995, P.P. 6, 7.)

كما يتساءل **أبيلار**: «**ما الفائدة من ذلك؟ باختصار، لكي يتضح الأمر، أنه في مثل تلك الحالة، أي حالة الشهوة وفقدان الشهوة، لا يُقال إنها خطيئة أنها الإرادة نفسها أو الرغبة في اقتراف المحظور، لكنه بالأحرى الموافقة والقبول والرضا ...، والآن فإننا عندما نرضى بما ليس مقبولًا ولا نتراجع عن اقترافه، ونكون مستعدين تمامًا أن نقترفه إن سنحت الفرصة، ... أيًا من وُجد نفسه في هذه الحالة، فقد جلب على نفسه ذنبًا كبيرًا، لكن أداء الفعل لا يُضيف أي شيء لزيادة الخطيئة، لكن، بالنسبة للرب فإن الشخص الذي يحاول قدر استطاعته أن يستمر في ذلك، يتشابه في ذنبه مع من تمادى في ذلك بالفعل ما دام كان قادرًا على ذلك، فهو يشبه في ذلك تمامًا كونه أقام على الفعل بشكل تام».**(Abélard, 1995, P. 7.)

بناءً على ما سبق، يرى **كيميني**، أن هناك اختلافًا بين **أبيلار وبيلاجيوس** حول ماهية الإرادة، فالخطيئة عند **بيلاجيوس** تتمثل في الأفعال الخاطئة التي تحدثها الإرادة بكل حرية، أما بالنسبة **لأبيلار**، فالإرادة ليست حرة في طاعة أو عصيان أوامر الله، رغم ذلك هناك تطابقًا بين كل منهما حول الضمير، فكلاهما يفترضان أن الضمير والعقل عادة ما يكونا قادرين على معرفة ما يُعد خطيئة وما لا يُعد خطيئة، فلا الضمير ولا العقل يُجبران على فعل الخطيئة، فالضمير مع المنطق والإلهام الإلهي مشابه للعقل عند **بيلاجيوس** الذي على دراية بالقانون الإلهي، وإنجازاته مع معاونة الله، وبذلك فقد أكد **أبيلار** على كل من: الموافقة، والقبول، والرضا، والنيَّة، والقصد، وقدرة الضمير على معرفة وفعل ما هو مناسب بحرية، كل هذا كان ذو روح **بيلاجية**، وبالتالي فإن الطبيعة الجوانيّة الراديكالية Radical Interiorization لكل هذه العمليات القلبية تجعل **أبيلار** يتفق مع البيلاجية بشكل واضح، هذا فضلًا عن إعادة توظيفه للمصطلحات الأوغسطينية بدلالات جديدة. (Kemeny, 1991, P.P. 382 :285.)

فبعد أن طرح **أبيلار** فلسفته عن عقلانية الأخلاق المسيحية، وذلك خلال مفهومه عن الخطيئة الفعليّة ومدى علاقته بنظرية النيّة من ناحية، وعلاقته بكل من الإرادة والشهوة والضمير من ناحية أخرى، فقد أثارت هذه الفلسفة ثورة دينية كانت شديدة الوطء على لاهوتي عصره، وذلك لما لها من نتائج تحررية ثورية عند تطبيقها على العقائد المسيحية، وهذا ما سنعالجه خلال وقوفنا على أهم التطبيقات التحررية لأخلاق أبيلار العقلانية.

رابعًا: التطبيقات التحررية لأخلاق أبيلار العقلانيّة.

لم يكتف **أبيلار** بمعالجة إشكالية الأخلاق خاصة مفهوم الخطيئة الفعليّة والذي أقامه على العقل، بل طبقه على عديد من المسائل الدينية، فلقد رفض **أبيلار** كون الجهل مصدرًا للخطيئة الأخلاقية، فعديد من البشر ارتكبوا أعمالًا سيئة، وفي الوقت ذاته ليس لديهم أدنى معرفة بجسامة ما فعلوه، إلا أن **أبيلار** وفقًا لمفهومه عن الخطيئة الفعلية لا يعد الفعل خاطئًا إلا إذا وُجدت النيَّة بالموافقة والرضا على القيام بذلك الفعل فحسب.

فطالما أن الله عند **أبيلار** يُحاسب البشر على أفعالهم بحسب نيّاتهم، وأن البشر لا يعاقبون على الخطايا الداخلية بقدر ما يعاقبون على الأفعال الظاهرة، وهم لهذا لا يتبعون المعيار الموضوعي الإلهي، ولهذا الرأي نتائج خطيرة استخلصها

أبيلار، فشنت عليه هجمات عنيفة، ومن أهم تلك النتائج، أن الذين اضطهدوا المسيح والشهداء لم يخطئوا، وأن الخطيئة الأصلية ليست خطيئة متوارثة، (بدوي، 1984، ص92) وأن غير المؤمنين بالمسيحية ليسوا مذنبين على الإطلاق، وسنتناول كل منهم بشيء من التفصيل.

1. رفض أبيلار ذنب صالبوا السيد المسيح .

لقد ميّز **أبيلار** بين الأفعال التي تُرتكب بفعل الجهل Ignorance أو الخطأ Error وتلك التي ترتكب بفعل النوايا السيئة، مثله في ذلك مثل **أوغسطينيوس**.(Kemeny, 1991, P.385) فعلى سبيل المثال، عندما يقوم شخص ما بقتل إنسانًا عن طريق الخطأ، حيث كان قصده صيد بعض الغزلان، فالخطيئة في الفعل، لكن لا يجب أن يوجه إليه اللوم على جريمته،(McMahon, 2009, P.3.) فلم يقف **أبيلار** عند حد تطبيق ذلك المبدأ على الأفعال الأخلاقية التي تمارس في الحياة اليومية، وإنما طبقه على المسائل العقائدية، وخاصة أولئك (اليهود) الذين صلبوا المسيح Christ's Crucifiers، ولنا أن نتساءل: **كيف طبق أبيلار فلسفته؟ وما موقف التيار الأصولي منها؟**

كانت واحدة من أهم النتائج التحررية التي أنتجها **أبيلار** من وراء عقلانيّة فكره الأخلاقي عامة، ومفهومه عن الخطيئة الفعليّة خاصة، رفضه ذنب ومعصية أولئك الذين صلبوا المسيح. فلقد سبق وأن رأينا كيف طرح **أبيلار** مفهومه عن الخطيئة، بأنها: "الموافقة على فعل الشر، وازدراء الله"، وكون الأفعال التي تحدث بفعل الجهل تعد أفعالًا ليست آثمة، لأن مُرتكبيها جاهلون بحقيقة الخطيئة التي تكمن في فعلهم، وهذا ما نادى به **أبيلار**، بقوله: «**... ولكن إن سأل أحدهم عن أولئك الذين اضطهدوا المسيح والشهداء، عما إذا كانوا قد أخطأوا في اعتقادهم بأنهم كانوا يرضون ربهم بهذا الفعل، أو أنه كان باستطاعتهم أن يقوموا بما قاموا به من شر دون أن يُحسب لهم خطيئة؟ فبالتأكيد، ووفق تعريفنا للخطيئة؛ بأنها هي ازدراء لله، أو الموافقة على ما لا يجب أن تتم الموافقة عليه، فلا يمكن أن نقول إنهم قد أخطأوا.**»(Abélard, 1995, P. 24.)

بالتالي، فإن صلب المسيح بفعل الجهل وفقًا لأبيلار لا يُمثل في حقيقة الأمر خطيئة، إلا أن **ليوسكومبي** Luscombe يلاحظ أن **أبيلار** عندما أكد على أن صلب المسيح مُعفى من الذنب أو المعصية، إلا أنه لم يكن مُعفى من الخطيئة بالمعنى الواسع للكلمة، (Demy, 1994, P.109) أي أن ذلك الفعل في حد ذاته يعد خطيئة إلا أن مرتكبيه ليسوا مذنبين على الإطلاق، لأنهم يجهلون حقيقة نبوة المسيح، ولكونهم غير مؤمنين به.

فقد أدان مجمع "**سانس**" موقف **أبيلار**، وكان رد أعضاء المجمع قائلين: "كيف نزعم أن أولئك الجهلة الذين صلبوا المسيح لم يخطئوا، وكيف لا نعد عملهم خطيئة حتى ولو كان ارتكابهم له نتج عن جهل منهم".(لوكلير،2009، ص 136)

2. رفض أبيلار ذنب مضطهدي الرُسل والشهداء.

لم يقف **أبيلار** عند هذا الحد، بل ذهب كذلك إلى أن الذين رجموا الرُسل والشهداء مثل **اسْتِفَانُوسَ** Stephen، قاموا بذلك زاعمين أن هذا يحقق إرضاءً لإلههم، وهذا لا يُعد خطيئة أيضًا، (McMahon, 2009, P.3.) لأن **أبيلار** يرى أن هذا يتنافى مع الدعاء الذي دعى به المسيح، ويتنافى كذلك مع الصلاة التي قام بها **اسْتِفَانُوسَ**، حيث قال **أبيلار**: «**... ولكن إن لم يُحسب جهل أولئك خطيئة، فلماذا إذًا صلى الرب نفسه قائلًا:** ﴿فَقَالَ يَسُوعُ: «يَا أَبَتَاهُ، اغْفِرْ لَهُمْ، لأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ»﴾ (إنْجِيلُ لُوقَا، الأصحَاحُ الثَّالِثُ وَالْعِشْرُونَ، 34)، **ولماذا صلى اسْتِفَانُوسَ، ودعى من أجل أولئك الذين رجموه**، قائلًا:﴿ يَا رَبُّ، لاَ تُقِمْ لَهُمْ هذِهِ الْخَطِيَّةَ[4]﴾، **لأنه يبدو أن الغفران لا يجب أن يعطى، لو لم تسبقه خطيئة، كما يبدو أن الغفران لا يعني أي شيء سوى إزالة العقاب المستحق للخطيئة، هذا بالإضافة إلى أن أسطفانوس قد دعى بوضوح أن كل ما نَبعَ من الجهل، فهو ليس خطيئة.**» (Abélard, 1995, P.P.24,25.) ووفقًا لدعاء المسيح وصلاة **اسْتِفَانُوسَ**، فإن مضطهدي المسيح والشهداء عند **أبيلار** لم يخطئوا في حقيقة الأمر؛ لأن نيّتهم كانت التعبُد بفعلهم هذا لربهم الذي يعبدونه.(بدوي، 1984، ص92)

3. رفض أبيلار ذنب غير المؤمنين بالمسيحية.

لم يقف **أبيلار** عند هذا الحد كذلك من دعوته بعدم إثميّة الذين صلبوا المسيح وعدم إثمية الذين رجموا الرسل فحسب، بل تمادى في تطبيق فلسفته التحررية لدرجة أن نادى بأن كل غير المؤمنين بالمسيحية ليسوا مذنبين، وهذا ما صرح به **أبيلار** قائلًا: «**... إن الجهل بأي شيء حتى عدم الإيمان (الإيمان الذي بدونه لا يمكن لأحد الخلاص) ذاته ليس خطيئة، فأولئك الذين لا يعرفون المسيح، وبناء على ذلك يرفضون الإيمان المسيحي، لأنهم يعتقدون أنه ضد الله (إلههم الذين يؤمنون به)، لا يمكن أن يُقال عنهم أنهم يزدرون الله فيما يفعلونه من أجله، السبب الذي يجعلهم يظنون أنهم يفعلون حسنًا.**»(Abélard, 1995, P. 24.) حيث يرى **أبيلار** أن الكفار؛ لاعتقادهم بأن المسيحية في حقيقة أمرها هي عقيدة تتناقض مع عقيدتهم الخاصة التي يؤمنون بها، بل واعتقادهم بأن عدم إيمانهم بالمسيحية بل ورفضها والهجوم عليها من الأشياء التي تدعو لها عقيدتهم الخاصة، وبالتالي فكل ما يقومون به ضد المسيحية من عدوان لا يُعد إثمًا.

4. رفض أبيلار وراثة الخطيئة الأصلية.

أما رابع النتائج التحررية التي توصل لها **أبيلار**، وإن كانت أهمهم على الإطلاق، فتتمثل في "رفضه لوراثة الخطيئة الأصلية" Originale Peccatum، فإذا كانت الخطيئة عند **أبيلار** تتحدد وفقًا لنيّة فاعلها، وهو وحده الذي سوف يتحمل ذنبها، فبالتالي لا وجود لخطيئة أصلية يتوارثها البشر عن **آدم** (عليه السلام)، بل أن خطيئة آدم خطيئة فعليّة خاصة به هو وحده فحسب، ولا يمكن لأحد أخر أن يتحمل ذنبها لأن هذا الأخر لم يكن موجودًا ليفعلها، وكذلك لم تكن نيّته حاضرة مع **أدم** واتفق معه ليشاركه في ذنبها.

فلقد ميّز **أبيلار** تمييزًا رائعًا بين مفهوم "**ميراث الذنب**" Inherited Guilt و"**ميراث العقاب**" Inherited Punishment في خطيئة آدم الأصلية، (Cartwright, Intro, Abélard, 2011, P.53) حيث رفض **أبيلار** وراثة ذنب الخطيئة الأصلية من **آدم**، وأبقى فحسب على وراثة العقاب، فيذهب **أبيلار** إلى **إننا نقول بأن البشر أنجبوا وولدوا بالخطيئة الأصلية، وأنهم تعاقدوا مع هذه الخطيئة الأصلية من أباءهم الأوائل، ويبدو أن ذلك يتعين أن يكون ذو صلة وعلاقة بالعقوبة** Poena **بالنسبة للخطيئة فحسب بدلًا من الشعور بذنب** Culpa **الروح أو عصيان الله**،(Abélard, 1995, P. 164) ووفقًا لذلك ينكر **أبيلار** إنكارًا تامًا وجود أي مشاركة للبشر في الذنب من الخطيئة الأصلية. (McMahon, 2009, P. 2.)

فقد تباينت ردود الفعل حول موقف **أبيلار** التحرري ما بين مؤيد ومعارض، فلقد تبنى بعض أفكار **أبيلار** القليل من مفكري عصره مثل **أنسلم الباسي** Anselm of Bec، إلا أن أغلبية اللاهوتيين رفضوا موقفه رفضًا تامًا، وكان من أشهرهم **جيلبرت دي لابوريه** Gilbert de Laporree **وبرنار** Bernard. فلقد اتفق **الباسي** مع **أبيلار** في أن الأعمال والأفعال ليست مخطئة أو آثمة في حد ذاتها، وفي أن الجهل يُقلل من خطورة واقعة الخطيئة مثل حالة أولئك الذين صلبوا المسيح، إلا أن إصرار **أبيلار** وتطبيقه لهذا الرأي على أولئك الذين صلبوا المسيح ردود فعل كثيرة، فكان رد فعل الأصولية آنذاك عليه ردًا حادًا، بل وكانت واحدة من التعاليم التي رفضها كل من: **لابوريه وبرنار**، فلقد أكد **برنار** على ذنب ومعصية صالبوا المسيح، وعلى الرغم من أن **أبيلار** قد طرح هذا الموقف في القرن الحادي عشر إلا أن اللاهوتيين المعاصرين حتى اليوم لم يتجرأوا على صياغة أي حجة يمكن لها تبرأة أولئك الذين صلبوا المسيح كما فعل **أبيلار**. (Demy, 1994, P.P. 108: 110)

أخيرًا، فقد أثارت عقلانيّة **أبيلار** الأخلاقية ونتائجها الثورية ضجة كبيرة في عصره، فقد أدانها مجمع "**سانس**"، وصنفها في عداد الهرطقات،(لوكلير، 2009، ص136) واتهم بموجب قرار هذا المجمع بالهرطقة.

الخاتمة:

يتضح مما سبق اعتماد **أبيلار** بشكل مباشر على العقل في طرح القضايا الأخلاقية التي عوّل عليها؛ فجاءت معالجته لكثير من المسائل الأخلاقية مستنده لمنطق العقل وبرهان الفكر؛ متغافلًا إلى حد كبير عن النزعة اللاهوتية؛ فجاءت أخلاقه عقلانية أكثر منها لاهوتية؛ بحيث أنه كان في معالجته لقضية الأخلاق يمثل فيلسوفًا مسيحيًا يعي القواعد الفلسفية ويطبقها بشكل مباشر على الأخلاق، ولم يكن مسيحيًا يتفلسّف؛ فيغلب قواعد اللاهوت على مذهبه الأخلاقي؛ ومن ثمة يمكن القول بأن نزعته الفلسفية فاقت نزعته الدينية في تناوله لقضية الأخلاق، وبذلك استطاع أن يحدث ثورة فائقة في مجال الفكر الأخلاقي الأوربي.(برماوي، 2009، ص 452، 453)

كما يتضح من أخلاق **أبيلار** اهتمامه بما هو شخصي، وهو ما سماه "بالطبيعة الداخلية السقراطية"، أو "الباطنية السقراطية"، أو "الجوانية السقراطية"Socratic Interiority وهو ما يتسق بشكل واضح مع عنوان كتابه "**اعرف نفسك**"، (McMahon, 2009, P.1.) وبالتالي، فيمكن القول أن **أبيلار** كان عالمًا سيكولوجيًا من الطراز الأول؛ إذ استطاع أن يغوص في أعماق النفس البشرية، وأن يحلل ظواهرها وبواطنها، مقتفيًا أثر الفعل الخلقي سواء كان فضيلة أو رذيلة، شارعًا في بيان دوافعه، ومتابعًا لأثره النفسي ومرامه الخلقي على صاحبه؛ فجاءت أخلاقه بمنزلة ثورة على الأخلاق التقليدية المسيحية،(برماوي، 2009، ص 452) وقد ذهب **كيميني** إلى أن المفهوم السيكولوجي عند **أبيلار** لمفهوم الخطيئة هو مفهوم أوغسطيني، فقد أكد على الجوانب الداخلية للموافقة، والقبول، والرضا، والقصد، والنيَّة، وذلك فإنها توازي إرادة الخطيئة في السيكولوجية الأوغسطينية، كما أن سيكولوجية **أبيلار** هي كذلك سيكولوجية عقلانية لأنه يفترض أن أسباب وحجج ضمير الفرد Individual's Conscience صحيحة بشكل تام، وربما تكون معيارًا موضوعيًا للوحي الإلهي".(Kemeny, 1991, P. 384.)

كما أن الفكرة المسيطرة على فلسفة **أبيلار** الأخلاقية، فيما يرى **جلسون**، تتمثل في الأهمية التي أضافها الرضا الداخلي إذا ما قورن بالفعل الخارجي الذي يعقبه، فالخطيئة شيء ووضع الخطيئة في حيز التنفيذ شيء آخر، وهذه التفرقة إذا ما تمسكنا بها لا تجعل العمل السيئ يستحق اسم الخطيئة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، وليس ذلك فحسب بل إنه لا يضيف شيئًا إلى جسامة الخطيئة، وما يجعلنا نتردد في قبول هذه الفكرة هو أننا نرى الأفعال الخارجية السيئة من حولنا تعاقب أكثر مما تعاقب الخطايا الداخلية التي ترتكب بالنيَّة، لكن لو أننا نظرنا إلى المسألة من وجهة نظر القانون الاجتماعي، فلابد لنا أن نذهب أبعد من ذلك، فالقانون يعاقب أفعالًا لا تكون أحيانًا سيئة، ويتسامح مع أفعال أخرى تكون سيئة، إنه لا يهتم بالشر الأخلاقي أو الخير الأخلاقي، وإنما هو يهتم بالمحافظة على النظام في المجتمع، ولهذا لا يثيب الخير ويعاقب الشر، وليس هذا هو الحال مع الله؛ فالله يراقب ما يفعله المرء كما يراقب ما تفعله الروح، وهو يزن أخطاءنا بميزان نوايانا.(جلسون، 2011، ص 391، 392)

كما ذهب **تلش** في أن **أبيلار** تجاهل الناحية التعليمية في فلسفته الأخلاقية، فقد رأى **تلش** أن تصورات **أبيلار** الأخلاقية لم تحدث أي نتائج في عصره، وذلك لأنه تجاهل العنصر التعليمي التربوي، فقد طلب من الجماهير غير المتعلمة أن تُحكم ضميرها، وليس لديها أي معايير موضوعية محددة سيضلون.(تلش، 2012، ص 200، 201)

كما اختلف عديد من الباحثين فيما إذا كانت أخلاق **أبيلار** ذاتية أم موضوعية أم تجمع بين الذاتية والموضوعية في الوقت ذاته، فذهب **تلش** إلى أن **أبيلار** قد كشف عن ذاتيته في كل آرائه الأخلاقية واللاهوتية؛ فمذهبه في الاستقلال الذاتي الأخلاقي يرتبط بالعقل الذاتي.(تلش، 2012، ص 200) أما **ليوسكومبي**، فرأى أننا لكي نطلق على وجهة نظر **أبيلار** الأخلاقية هذه بأنها ذاتية سيكون حكمًا غير دقيق إلى حد ما، لأنه على الرغم من أن **أبيلار** قد جادل بأن الفعل الإنساني خيرًا أخلاقيًا أو سيئًا أخلاقيًا في حد ذاتهما، فعلى الرغم من ذلك، فقد أقر بوجود معايير موضوعية لما هو صواب ولما هو خاطئ، فأخلاقية أفعالنا تتحدد عن طريق نوايانا لكن نوايانا يجب أن تكون على علم ومعرفة بتعاليم القانون الإلهي. (Luscombe, 1974, P. 80)

فالأخلاق التي عوّل عليها **أبيلار**، فيما نعتقد، هي أخلاق عقلانية في المقام الأول، إنها ليست عقلانية مطلقة، أي ليست ذاتية ترفض المعايير الموضوعية المتضمنة في الكتاب المقدس، بل هي أخلاق عقلانية معتدلة تعطي للإنسان المكانة التي يستحقها، وفي الوقت ذاته تحرص على المعايير الموضوعية المتضمنة في الكتاب المقدس فحسب دون المعايير الكنسية واللاهوتية التي وضعها رجال اللاهوت ومنظماتهم الكنسيّة، فما كان من **أبيلار** إلا ورفضهًا رفضًا تامًا، كما أن عقلانية **أبيلار** الأخلاقية لم تكن عقلانية نظرية فحسب، وفقًا للبناء النظري الذي طرحه **أبيلار**، بل كانت عقلانية تطبيقية، حيث اهتم بتطبيق فلسفته على الأفعال الإنسانية؛ أخلاقية ودينية على حد سواء، فنتج عنها نوعًا من التحرر الديني، ورفض الخضوع للسلطة اللاهوتية، التي كانت تُقر في ذلك الوقت "بإثمية فعل صلب المسيح"، و"إثمية مضطهدي الرسل والشهداء"، و"كُفر غير المؤمنين بالمسيحية"، و"بوراثة الخطيئة الأصلية"، وفي الوقت ذاته وتمثل الأخلاق العقلانية التي طرحها **أبيلار** دعوة لتجديد الفكر الديني والأخلاقي، وإكساب إشكاليات كل منهما روح عقليّة، وتحرريّة، وتجديديّة، وإصلاحيّة، بل وثوريّة أيضًا؛ لتحقيق التسامح الديني والعقلي مع المسيحيين بعضهم مع الآخر من جهة ومع المسيحيين والمخالفين لهم عقائديًا من جهة أخرى.

كما تُعد الأخلاق العقلانيّة واحدة من أهم المفاهيم التي عوّل عليها **أبيلار** رغبة منه في تحرير الأخلاق المسيحية من كل سلطة وهيمنة لاهوتية كانت تُمارس عليها، فقد أراد **أبيلار** أن يحقق الاستقلال الذاتي للعقل الإنسان، محاولًا تأسيس مكانة مركزية للإنسان يدور في فلكها كل من الأخلاق والدين على حد سواء، ورفض ما كان سائدًا من سيطرة اللاهوت والكنيسة في ذلك الوقت على الإنسان؛ فالإنسان عند **أبيلار** ونيته الداخلية، وليست الكنيسة، هي التي تقيّم فعله، أخلاقيًا وعقائديًا.

Abstract

Saint Pierre Abelard's
Rationality of Christian Ethics and its liberal applications
By Ghallab Elew Hamada Osman

Rationality of Christian Ethics and the concept of actual sin are considered among the most important ethical issues which were dealt by Pierre Abelard, the most important rationalist philosopher of ethics and theology in the Mediaeval Ages. He was distinguished by relying on reason, rebelling against the church, calling for Humanism and his reformation of the Christian thought and discourse.

Abelard has connected between ethics and theology out of his desire to liberae the Christian ethics and to raise the value of man. He made ethics rely on reason through presenting rational ethics which give a precise concept of the 'actual' sin; and in which intention, will conscience and concupiscence come first. According to him, there is no place but for the personal actual sin in which the doer take the responsibility. Thus, ignorance of some act is not considered a sin.

He applied ethics on theology that he reached many liberating results which were really an ethical and rational revolution against theology. Among the most important results are: his refusal of the Christ's Crucifiers sin, his refusal of the messengers and martyrs oppressors' sin, his refusal of the non-believers of Christianity sin, and his denial of the original sin. Therefore, he was accused of hypocrisy in Sens Commune in 1141.

The aim of this paper is to discover the thought of Pierre Abelard, the most influential liberating Christian philosopher. The paper also aims at understanding his ethical though which is very much connected with theology. One will depend on comparative analytical critical methodology in dealing with Abelard's ideas.

The paper deals with four basic points:

- Abelard concept of actual sin.
- Abelard concept of intention and its effect on the actual sin.
- Abelard concepts of will and concupiscence and their relation to the actual sin.
- Liberating applications of Abelard rational ethics.

Key words: Pierre Abelard, ethics, will, actual sin, Christianity, intention.

الهوامش

(1) ولد أبيلار عام (1079م) في مدينة باليّه *Palais* القريبة من نانتس *Nantes* في فرنسا، لأحد نبلاء، وتلقى تعليمه على يد روسلان (1050–1120م) *Roscellinus* زعيم الإسمية *Nominalism* وأشهر كاهن في كومبيجنا *Compiegne*، كما واصل تعلم كذلك على يد ويليام دي شامبو (1070– 1121م) *Gulielmus de Campellensis* زعيم الواقعية *Realism*. كما شرع أبيلار في إنشاء مدرسة خاصة به لتعليم المنطق من ناحية ولمنافسة أستاذيه روسلان وشامبو من ناحية أخرى. وفي عام (1118م) عشق أبيلار إحدى تلميذاته، وهي هيلويزا (1101م)، ابنه شقيق فُلوبير *Flubert*، رئيس كاتدرائية **نوتردام**، وكان من أهم نتائج تلك العلاقة خصاء أبيلار. وقد قام أبيلار بعديد من المناظرات، وخاصة شامبو، وأنسلم دي ليون *Anselm of Laon*، كما انتخب أبيلار رئيسًا لمدرسة نوتردام عام (1113م). وقد أدين مرتين بالهرطقة، الأولى من مجمع "سواسون" *Soissons* عام (1121م) والثانية من مجمع "سانس" *Sens* عام (1141م)، بسبب آرائه التحررية، فقد نادى أبيلار بالنزعة الإنسانية وأهمية إعمال العقل في النصوص المقدسة، وصرح بأن هناك الكثير من المتناقضات في الكتب المقدسة، كما أعلن بالتوحيد المطلق، وأن الثالوث ما هو إلا صور متنوعه لله، كما أنكر وراثة الخطيئة الأصلية. وقد كتب **أبيلار** سيرة ذاتية لحياته بعنوان "**تاريخ مصائبي**" *Historia Calamitatum* . (Abélard, 1922.)

كما كان لأبيلار عديد من المؤلفات الأخلاقية، والمنطقية، واللاهوتية، والميتافيزيقية، واللغوية، ...إلخ، نذكر من أهمها: "الأخلاق أو الكتاب المسمى اعرف نفسك" *Ethica Seu Liber dictus Scito te Ipsum*، و"الديالكتيك" (1102م)، *Dialectica*، و"المنطق" *Logica*، و"اللاهوت الخير الأسمى" *Theologie Summi boni*، و"اللاهوت المسيحي" *Theologia Christiana*، و"اللاهوت المدرسي" *Theologia Scholarium*، و"موجز اللاهوت المسيحي" *Epitome Theologiae Christianae*، و"مدخل إلى اللاهوت" *Introductio ad Theologiam*، و"نعم ولا" *Sic et Non*، و"في التوحيد والتثليث الإلهي" *De unitate et trinitate divinis*، و"تفسير الرسالة الإنجيلية للرومان" *Commentarii super Epistolam ad Romanos*، و"حوار بين فيلسوف ومسيحي ويهودي" *Dialogus inter Philosophum, Judaeum et Christianum*.

(2) القانون الوضعي: هو مجموعة القواعد التي تصدرها سلطة بشرية في مجتمع معين بقصد تنظيم جوانب بعينها من سلوك ومعاملات الأفراد في ذلك المجتمع تنظيمًا إجباريًا من خلال ما تتمتع به تلك السلطة من أدوات القوة التي تكفل الزام الأفراد المخاطبين بتلك القواعد بالإمتثال لما هو وارد فيها. (عبد الله، 1998، ص 637).

(3) القانون الأخلاقي: هو القانون الوجداني المبني على فكرة الخيّر، وهو نور طبيعي أفاضه الله على ضمائرنا لمعرفة ما يجب عليه فعله أو اجتنابه في سبيل تحقيق طبيعتنا المثالية. (صليبا، 1982، ص 180، 181.)

(4) راجع: ﴿[59]فَكَانُوا يَرْجُمُونَ اسْتِفَانُوسَ وَهُوَ يَدْعُو وَيَقُولُ: «أَيُّهَا الرَّبُّ يَسُوعُ اقْبَلْ رُوحِي».[60]ثُمَّ جَثَا عَلَى رُكْبَتَيْهِ وَصَرَخَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: «يَا رَبُّ، لاَ تُقِمْ لَهُمْ هذِهِ الْخَطِيَّةَ». وَإِذْ قَالَ هذَا رَقَدَ.﴾ أَعْمَالُ الرُّسُلِ: الأصحَاحُ السَّابِعُ (59–60)

قائمة المصادر والمراجع

أولًا: قائمة المصادر.

1. الكتاب المقدس.
2. Abélard, Peter, (2011), ***Commentary On The Epistle To The Romans***, Trans. and Intro. Steven R. Cartwright, The Fathers of the Church Mediaeval Continuation, V. 12, Eds., Gregory F. La Nave and others, U. S. A.: the Catholic University of American press.
3. Abélard, Peter, (1995), ***Ethical Writings: His Ethics or "Know Yourself" and His Dialogue between a Philosopher, a Jew and a Christian***, Trans. Paul Vincent Spade, Intro. Marilyn McCord Adams, U.S.A.: Hackett Publishing Company, Cambridge.
4. Abélard, Peter, (1922), ***Historia Calamitatum***, The Story of My Misfortunes, An Autobiography, Trans. Henry Adams Bellows, Grand Rapids, New York: Christian Classics Ethereal Library.

ثانيًا: قائمة المراجع

- **المراجع الأجنبية.**

5. Brower, J. E. & Guilfoy, K. (Eds.), (2004), ***The Cambridge companion to Abélard***, U. K.: Cambridge University Press.
6. Demy T. J., (1994), ***The Doctrine Of Original Sin In Twelfth – Century Theology***, M. A., Advisor: Bede K. Lackner, Arlington: The University of Texas, December.
7. Kemeny, P. C., (1991), ***Peter Abelard: An Examination of His Doctrine of Original Sin,*** The Journal of Religious History, Vol. 16, No. 4, December, (P.P. 374: 386)
8. Luscombe, D. E., (1974), ***The Ethics of Abelard***: Some Further Considerations, In, "Peter Abelard Mediaevalia Lovaniensia", E. M. Buytaert (Ed.), Series I, Studia II, Nijhoff: Leuven University Press, (P.P. 65: 85),
9. McMahon, K. A., (2009), ***Penance and Peter Abelard's Move Within***, Institute for Saint Anselm Studies: The Saint Anselm Journal, Vol. 6, No. 2, Spring, (P.P. 1:7).
10. Williams, T., (2006), ***Sin, Grace and Redemption***, In, Brower, J. E. & Guilfoy, K.: The Cambridge companion to Abelard, U. K.: Cambridge University Press, (P.P. 258: 278).

- **المراجع العربية:**

11. بدوي، عبد الرحمن، (1979)، ***فلسفة العصور الوسطى***، ط 3، بيروت: دار القلم.
12. برماوي، نادية، (2009)، ***فلسفة الأخلاق عند القديس بيير أبيلارد***، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد الثامن والستون، المنيا: كلية الآداب جامعة المنيا، يناير.(ص 421: 459)
13. تلش، بول، (2012)، ***تاريخ الفكر المسيحي من جذوره الهلينستية واليهودية حتى الوجودية***، الجزء الأول، ترجمة وهبه طلعت أبو العلا، مشروع جامعة القاهرة للترجمة، الكتاب السابع، الجيزة: مركز جامعة القاهرة للغات والترجمة.
14. جلسون، إتين، (2011)، ***روح الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط***، ترجمة وتعليق إمام عبد الفتاح إمام، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
15. رشوان، محمد مهران، (1998)، ***تطور الفكر الأخلاقي في الفلسفة الغربية***، القاهرة: دار قباء.
16. سدچويك، هنري، (1949) ، ***المجمل في تاريخ علم الأخلاق***، ترجمة وتقديم وتعليق توفيق الطويل وعبد الحميد حمدي، الجزء الأول، الإسكندرية: دار نشر الثقافة.
17. عبد الله، نصار، (1998)، ***دراسات في الأخلاق والسياسة والقانون***، الإسكندرية: دار الوفاء.
18. كانط، إيمانويل، (1965)، ***تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق***، ترجمة وتقديم وتعليق عبد الغفار مكاوي، مراجعة عبد الرحمن بدوي، القاهرة: المكتبة العربية.
19. كرم، يوسف، (1946)، ***تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط***، القاهرة: دار الكتاب المصري.
20. لوكلير، جوزيف، (2009)، ***تاريخ التسامح في عصر الإصلاح***، ترجمة جورج سليمان، مراجعة سميرة ريشا، بيروت: المنظمة العربية للترجمة.
21. هيل، جوناثان، (2012)، ***تاريخ الفكر المسيحي***، ترجمة سليم إسكندر ومايكل رأفت، مراجعة محمد حسن غنيم، القاهرة: دار الكلمة.

ثالثًا: الموسوعات والمعاجم:

22. بدوي، عبد الرحمن، (1984)، ***موسوعة الفلسفة***، الجزء الأول، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
23. صليبا، جميل، (1982)، ***المعجم الفلسفي***، الجزء الثاني، بيروت: دار الكتاب اللبناني.